مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

النَّسَقُ الإِيْقَاعِيُّ وَالتَّرْكِيْبِيُّ فِي الخُطْبَةِ الفَدَكِيَّةِ لِلسَّيِّدَةِ الزَّهْرَاْءِ عليها السلام

فاطمة عبّاس إسماعيل طرابلسي [١]

١ الجامعة الإسلاميَّة / كُلِّيَّة الآداب / قسم اللُّغة العربيَّة، لبنان؛

Fatima.trabolsi@hotmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/٢/١	٢٠٢٤/٢/٢٧	٢٠٢٤/٣/٣١

المجلـد (١٧) العـدد (٢٩)
رَمَضَان ١٤٤٥هـ-آذَار ٢٠٢٤م

DOI:
10.55568/t.v17i29.67-93

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

بحثت هذه الدراسة النسق الإيقاعيّ والتركيبي لخطبة السيِّدة فاطمة الزهراء المعروفة بالفدكيَّة، قُسِّمت هذه الدراسة على مبحثين النسق الإيقاعيّ والنسق التركيبيّ.

تطرّق المبحث الأوّل إلى الإيقاع الخارجيّ وفواصل الخطبة ودلالاتها ثُمَّ لامس ظاهرة الإيقاع الفكريّ والتناصّ، بينما تطرّق الباب الثاني إلى الدلالات التركيبيَّة كالاستفهام ودراسة ظاهرة استعمال المنصوبات مثل المفعول لأجله والحال.

خلصت الخاتمة إلى نتيجة مفادها أنَّ السيدة الزهراء عليها السلام استثمرت وسائل التواصل الفعّال بغية إنجاح هذه العمليَّة وتخليدها في نفوس المؤمنين.

الكلمات المفتاحية: النسق، الإيقاع الفكريّ، التناصّ.

Structural and Rhythmic Harmony in Fadakya Sermon of Lady Al-Zahra (PBUH)

Fatima `Abbas Ismael Trablsi [1]

1 Lebanese University / Doctoral School of Literature / Department of Arabic Language, Lebanon;

Fatima.trabolsi@hotmail.com
PhD. in Arabic language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
1/2/2024	27/2/2024	31/3/2024

DOI:
10.55568/t.v17i29.67-93

Volume (**17**) Ramadan 1445 AH
Issue (**29**) March 2024

Abstract:

This study dealt with the musical and compositional format of the sermon of Lady Fatima al-zahraa, Known as Al-Fdakiya.

The study is divided into two sections: musical and compositional format.

The first section talked about the external rhyth, the sermon breakes, and its connotations. It also went through the phenomenon of intellectual rhythm and intertextuality. However, the second section talked about the syntactic connotations such as interrogatives and the study of the phenomenon of using accusative cases, such as the causative and the adverb.

The final results concluded that the preacher invested in effective communication methods in order for the process to succeed and engrave it in the souls of believers.

Keywords: Style, intellectual rhythm, intertextuality.

المقدِّمة:

تبوأت الخطابة في عصر صدر الإسلام مكانةً مهمّةً، فاستعملها الخطباء المسلمون للدفاع عن الدين ولذلك اكتست طابعًا سياسيًّا. والخطاب السياسيّ أداةٌ تستعملها القوَّة السياسيَّة في مواجهة نزاعاتها مع القوى الأخرى "فلم تزدهر الخطابة العربيَّة في عصرٍ من العصور مثل ازدهارها في عصر صدر الإسلام فقد كانت العوامل متوافرة لشيوع هذا الفنّ وتقدّمه فمن فصاحةٍ فطريَّةٍ في العربيّ إلى براعة التصرّف في ضروب الكلام، وكانت الخُطب السياسيّة يلقيها الزعماء على أحزابهم لتشدّ أزرهم أو يردُّوا بها على خصومهم ليدحضوا أقوالهم أو يخاطبوا بها بلدًا عاصيًا ليدعوه إلى الطاعة، فلا عجب إذًا أن يكون للخطابة شأنٌ عظيم في ذاك العهد وهي تعتمد على الدين من ناحية وعلى السياسة من ناحيةٍ أخرى" [١]، والخطبة في جذرها اللُّغويّ تعني "الشأن أو الأمر صَغُر أو عظم، والكلام الّذي يتكلّم به الخطيب والخطبة عند العرب الكلام المنثور المسجّع والخطبة مثل الرسالة الّتي لها أوّلٌ وآخر"[٢]، يلتقي المعنى الاصطلاحيّ للخطبة مع المعنى اللُّغويّ فتعرَّف بأنَّها "فنٌّ مخاطبة الجماهير بغية الإقناع والإمتاع بكلامٍ بليغٍ وجيزٍ فهي قطعةٌ من النثر الرفيع قد تطول أو تقصر حسب الحاجة إليها وهي من أقدم فنون النثر لأنَّها تعتمد على المشافهة لأنَّها فنّ مخاطبة الجمهور بأسلوبٍ يعتمد على الاستمالة؛ وذلك يقتضي من الخطيب تنوّع الأسلوب وجودة الإلقاء وتحسين الصوت ونطق الإشارة، أمَّا الإقناع فيقوم على مخاطبة العقل وذلك يقتضي من الخطيب ضرب الأمثلة والبراهين" [٣].

عصفت بالأمَّة الإسلاميَّة عوامل مضطربة جعلت هذه الخطبة تولد من أحداثها فقد شكّل استشهاد النبيّ محمّدٍ ﷺ عاملًا مبدّلًا في الإسلام، تمثّل في الصراع الأكبر والأبرز على مسألة الخلافة "وإنَّ أعظم خلاف بين الأمَّة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدةٍ دينيَّةٍ مثل ما سُلَّ على الإمامة في كلِّ زمان" [٤].

---

١ البستاني، بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، د.ط. بيروت: دار الجيل، د.ت، ٣٨٥_ ٣٨٦.
٢ ابن منظور، لسان العرب مج١،تحقيق. يوسف البقاعي، ط١ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٥)، ١١١٤.
٣ عبد الله، حمد .موسوعة علوم اللغة العربية، ط١ (بيروت: دار القلم، ٢٠٢٣)، ٥٩.
٤ الشهرستاني، أحمد .الملل والنحل ج١، تحقيق. محمّد عبد الوكيل، د.ط. (القاهرة: مؤسسة الحلبي، ١٩٦٨)، ١٣.

وهنا تجدر الإشارة إلى التطرّق إلى اختيار الحاكم الأوَّل وماجرى بسبب ذلك من أحداث، فضلًا عن أنَّ السيِّدة الزهراء ﷺ وما تتمتَّع به من مزية القداسة في نفوس المسلمين أعلنت من غير موارية عن عدم رضاها عن المبايعة الّتي حدثت عقب استشهاد النبيّ ﷺ فبحسب ما يذكر رواة الحديث أنَّ الحاكمين "استأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما، فأتيا عليًّا فكلَّماه فأدخلَهما... فسلّما فلم تردّ ﷺ... ثُمَّ خرج أبو بكر باكيًا فاجتمع إليه الناس فقال لهم: يبيت كلُّ رجلٍ منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي"[٥]، تشير هذه الرواية إلى الدور العظيم الّذي تضطلع به السيدة الزهراء ﷺ في الأحداث السياسيَّة، وقد أشارت المرويَّات إلى مطالبتها بإرثها من أبيها، فذلك لإنَّ فدكًا هي المعادل الموضوعيّ*[٦] للخلافة، ويكشف عن هذا حديث الإمام الكاظم ﷺ مع هارون العباسي إذ "إنَّ هارون كان يقول لموسى بن جعفر ﷺ: خذ فدكًا حتّى أردها إليك، فقال الإمام: لا آخذها إلّا بحدودها، وحاصله أنَّ فدكًا عنوان للأراضي الّتي تجري عليها يد الخلافة الإسلاميَّة فيكون مصداقه بهذا جميع بلاد الإسلام فلا بدَّ من أن يردّ أمر الخلافة برمَّته"[٧]، وهي ذات وزن اقتصاديّ يعود بالفائدة على الأمَّة الإسلاميَّة "وإنّ فدكًا تشكّل ثروةً مهمّةً"[٨]، انطلاقًا ممّا تقدّم يصحّ القول إنّ هذه الخطبة هي خطبة استرداد الحق إلى نصابه ومنها الخلافة.

إشكاليَّة الدراسة وأسئلتها:

تتمثّل الإشكالية الرئيسة لهذه الدراسة في معرفة كيفيَّة توظيف السيدة الزهراء ﷺ للنسقين الإيقاعيّ والتركيبيّ على مستوى ما عملت على توليفه في خطبتها، وإلى أي مدى تمكّنت من بناء منظومة فكريَّة منسجمة مع هذين النسقين وملائمة للإيديولوجيا الّتي سعت إلى بثّها في نفوس المسلمين؟

---

٥ الدنيوري،ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ج١، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٦)، ١٧.

٦ فتحي،إبراهيم. معجم المصطلحات الأدبيّة، ط١ (تونس: المؤسسة العربية للناشرين، ١٩٨٦)، ١٤٥.

٧ الأنصاري،التبريزي. اللمعة البيضاء، تحقيق. هاشم الميلاني، ط١ (قم: دفتر نشر الهادي، ١٤١٨)، ٢٩٤.

٨ الصدر،محمّد باقر. فدك في التاريخ، ط١ (العراق: دار الصدر، ١٤٢٩)، ٣٢.

* objective correlative يعتمد المصطلح على نزعة ميكانيكيّة تضع علامة التساوي بين إحساس جاهز متشيّئ وبين وسائل تعبير تؤثّر في الجهاز العصبيّ للإنسان كما تؤثّر العقاقير.

وينبثق من هذه الإشكاليَّة عددٌ من الأسئلة الفرعيَّة منها:

١-كيف استطاعت توظيف البنيات اللُّغويّة في خدمة النسق الإيقاعيّ؟

٢-هل استطاعت الاستفادة من المستوى التركيبيّ في ترويج الفكرة الّتي أرادت إثباتها؟

٣-ما الرافد الرئيس الّذي استلهمته السيدة الزهراء ﷺ واستثمرته في هذا النسق اللُّغويّ؟

وستعمل هذه القراءة على الإجابة عن هذه التساؤلات مع الاسترشاد بمنهجٍ ملائم.

منهج الدراسة:

تستلزم القراءة النقديَّة اقتفاء منهج، ونظرًا إلى طبيعة الموضوع المطروح ستعتمد هذه القراءة المنهج البنيويّ التكوينيّ، وهو فرعٌ من فروع البنيويَّة يعتمد على مبدأين هما: "المعاينة العامّة الّتي تحدث لا من خارج المجتمع بل من الحياة الثقافيَّة لهذا المجتمع، والفكرة الثانية: أنَّ الأفعال الإنسانيَّة أجوبة شخص فرديّ أو جماعيّ، ويجب على الباحث إظهارها"[٩]، وبناءً عليه سيُفكّك هذا النصّ لتتحدّد البنيات الدّالَّة في شكل مقولات فكريَّة وموسيقيَّة وتركيبيَّة تشكِّل نسقًا من العلاقات في المنظومة الفكريَّة عند السيدة الزهراء ﷺ، ثُمَّ دراسة بنية الخطاب والأنساق الّتي تربط بينها في ضوء الحيِّز الاجتماعيّ الّذي ولدت فيه هذه الخطبة.

المبحث الأوَّل: النسق الإيقاعيّ

تشغل حاسَّة السمع مكانةً كبرى في النفس البشريَّة ومن ذلك الخطاب القرآنيّ الّذي أولى السمع ميزةً أساسيَّةً فقد ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (**القصص** ٧١)، فقرَن الضياء بالسمع "لأنَّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده"[١٠]، فضلًا عن ذلك تميّزت اللُّغة العربيَّة بوقعها الموسيقيّ "فهي لغة موسيقيّة اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم عهودها كما هو واضح في نصوصها القديمة، والعربيُ يعتمد على سمعه في الحكم على النصّ اللُّغويّ؛ لذا فهو مرهف الحسّ يستريح إلى ضربٍ من الكلام لحسن وقعه وينفر من آخر لنُبُوِ جرسه"[١١]، وإن كانت الموسيقا مكوّنًا أساسيًّا من مكوّنات النصّ الشعريّ، فهي

٩ بنيس، محمد .ظاهرة الشعر المغربيّ المعاصر، ط٢ (المغرب: دار التنوير، ١٩٨٥)، ٣٣٣.

١٠ الزمخشري، الكشّاف ج٣، تحقيق. محمّد عبد السلام شاهين، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٥)، ٤١٤.

١١ القيسي، عبد المحسن. العربية لغة وثقافة، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٩)، ٧٧.

عصبه وأساسه، فإنَّها في النصّ النثريّ عمومًا والبليغ خصوصًا منفذٌ يسلكه المبدع لتمرير خطابه وإيحاءاته ودلالاته بناءً على ذلك "اتسمت خطبة السيِّدة الزهراء بكلِّ معايير النصّ الّتي تجعلها نصوصًا متماسكة الأطراف محكمة البناء فمتلّقي هذا الخطاب يلحظ بوضوح قصديّته وسبكه، وهي تعدّ أنموذجًا فريدًا للخطب الدينيّة إذ ظهرت فيها بلاغة الزهراء ﷺ وفصاحتها؛ لذا تضافرت عدّة دلالات وأساليب استعملتها الزهراء ﷺ لإبراز مقصديتها عبر استخدامها للأساليب اللُّغويَّة الّتي تحقّق ما تريد"[١٢]. وطالما أنَّ الأشكال هذه تدور في حيّز اللُّغة فإنَّ دراستها ستكون ضمن دائرتين هي الحرف والجملة.

أوَّلًا: الإيقاع الداخليّ

١-دائرة الحرف

تتشكّل الكلمة من مجموعة حروف تنبثق منها أصواتٌ تنسجم مع الحالة النفسيَّة للمبدع "فاستخدام الحرف ينطوي على شيءٍ أشبه بالسحر وهو سحر الصوت المنسجم مع المعنى هذا السحر الصوتيّ هو الشيء الّذي لا يمكن معرفته بدقّة"[١٣]، فلا يعدّ الأمر ظاهرةً إلَّا بتكراره والملحوظ في هذه الخطبة أنَّ السيِّدة الزهراء ﷺ افتتحتها بحمد الله فكرّرت في فواصلها حرف الميم ثلاث مرّات "الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدّم"[١٤]، فإنَّها على رغم المصائب الّتي عصفت بها اختارت الحمد والثناء مفتتحًا واللافت اختيار حرف الميم لأنَّه صوتٌ "ينغلق عليه الفم وهو صوتٌ يحاكي الأنين والألم والتوجُّع الصامت من دون جلبةٍ أو صراخ وقد يتطلّع إلى بعث الشدّة والتماسك وقد يدلُّ على مرارة الفقد لفلذات الأكباد والعظماء"[١٥]، فضلًا على اختيار حرف الميم، برزت الفواصل المنتهية بالهاء الممدودة، وقد أسبغ حرف المدّ الألف المقترن مع الهاء دلالة الحزن على الخطبة "فحروف المدّ تتيح التعبير عمّا يجول في النفس من مشاعر وأحاسيس فنيَّة وجلب انتباه المتلقّي من ناحية أخرى، وتكرار حرف الألف يتطلّب النَّفَس الطويل لكي يعبّر عمَّا يجول في الداخل"[١٦]،

١٢ الشكري، محمّد .علم اللغة النصيّ، ط١ (عمّان: مركز الكتاب الأكاديميّ، ٢٠٢٠)، ١١٢.
١٣ مبارك، محمّد .اللغة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي، ط١ (العراق: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٣)، ٢٠١.
١٤ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، تحقيق. عبد الرسول زين الدين، ط١ (مؤسسة قصبة الياقوت، ١٤٤١).
١٥ الحيّاوي، عوّاد. شعر أبو ذؤيب الهذلي دراسة أسلوبية، ط١ (دمشق: دار رسلان، ٢٠١٥)، ٢٦٥.
١٦ حمد، عبد الله .قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، ط١ (عمّان: دار الأكاديميون، ٢٠١٨)، ١٤٧.

كقولها: "وسبوغ آلاءٍ أسداها وتمام مننٍ والاها جمّ عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها"[١٧]، فحروف المدّ تستغرق زمنًا أطول ما يجعل من الكلمة الّتي تتضمَّنها تتكرّر زمنًا موسيقيًّا أكثر طولًا؛ ولذلك أكثرت من استعمال حرف المدّ المقترن بالهاء، ففي كلِّ مقطع بالخطبة تتكرّر مجموعة من الفواصل، الملحوظ أنَّ عدد الفواصل في هذه الخطبة، بلغ اثنتي عشرة فاصلة، وهو رقمٌ يشير إلى الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ الّذي سمعه منه المسلمون "[١٨]، فهذا الإيقاع الداخلي جاء مسخَّرًا في خدمة العقيدة الّتي أرادت السيدة الزهراء ﷺ تذكير المسلمين بها.

٢-دائرة الجملة

١-الجناس

أسفرت هذه الخطبة عن حضورٍ طاغٍ ووارفٍ للجناس، وهو بدوره يأتزر بوظيفة إيقاعيَّة مساندة للوظيفة الجماليَّة وهو في أصله اللُّغويّ يعني المماثلة فيُقال "هذا يُجانس هذا أي يُشاكله وفلان يُجانس البهائم ولا يُجانس الناس إذا لم يكن له تمييز أو عقل"[١٩]، انطلاقًا من المعنى اللُّغويّ يمكن القول أنَّ الجناس يعني تشابه كلمات مع بعضها، من دون تكلُّفٍ من الخطيب "أمَّا التجنيس فإنَّك لا تستحن تجانس اللَّفظين إلَّا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا ولم يكن مرمى الجمع بينهما مرمى بعيدًا"[٢٠]، والمتأمِّل في هذه الخطبة يدرك سيطرة الجناس ودوره في تنبيه المتلقِّي ابتداءً من أوِّل الخطبة في قولها "نأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها"[٢١]، فقد وقعت المجانسة بين أمدها وأبدها وهو ممّا يسمّى بالجناس اللاحق "إن كان الاختلاف بحرفين غير متقاربين فيسمّى التجنيس اللاحق"[٢٢]، فقد اختلف حرفي الميم والباء مع اشتراكهما بالمخرج نفسه "وممّا بين الشفتين مخرج الباء والميم"[٢٣]،

١٧ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٦.
١٨ الشنقيطي، محمّد. زاد المسلم فيما اتفقت عليه البخاري ومسلم ج٤، تحقيق. محمّد السيد عثمان، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢)، ٥٣٧.
١٩ ابن منظور، لسان العرب مج١، ٦٧٤.
٢٠ الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، تحقيق. محمود شاكر، د.ط. القاهرة: مطبعة المدني، د.ت، ٣٧
٢١ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٦.
٢٢ الرازي، فخر الدين. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق. بكري شيخ أمين، ط١ (بيروت: ار العلم للملايين، ١٩٨٠)، ١٢٩.
٢٣ سيبويه، الكتاب ج٤، تحقيق. عبد السلام هارون، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢)، ٤٣٣.

ظهر الجناس أيضًا عند الحديث عن القرآن الكريم في قولها: "أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة"[٢٤]، واللافت وصف القرآن الكريم بأوصاف من الحقل المعجميّ للوضوح والظهور، وهو أيضًا من ضمن الجناس اللاحق، ولكن اشتراك هذا الجناس في الفاصلة نفسها الهاء يحمل دلالة الحزن والأسى "فالهاء صوت مهموس ورخو يدلّ على ما يعاني منه شخص منفعل قد دخل في حالة يأس أو حزن ولو لعارضٍ مفاجئ"[٢٥]، وهذا ما ينسحب على الوضع الاستثنائيّ لهذه الخطبة، علاوة على ذلك ظهر هذا النوع من الجناس أيضًا بين الفعلين "أزاح وأزال" "تكمن جماليَّة هذا الجناس في خداع المتلقِّي ومفاجأته بالجديد بعد أن يظنَّ بأنَّ اللَّفظة قد تكرّرت نتيجة لتشابه حروف اللَّفظتين ولكن سرعان ما يزول التوهُّم عندما يطرق مسامعه حرف مغاير للحرف الأخير من اللَّفظة الأولى وهذا التغاير بطبيعة الحال أدَّى إلى استحداث معنى جديد يغاير ما سبقه"[٢٦]، بموازاة هذا يظهر جناس التصحيف عند مخاطبة أمير المؤمنين ﷺ "وفيه تتحدّد الألفاظ بصورتها وترتيبها وتختلف في تنقيط حروفها"[٢٧] بقولها: "افترست الذئاب وافترشت التراب"[٢٨] فالجناس قائمٌ بين الفعلين، أضاف هذا المكوّن الإيقاعيّ إلى الخطبة جماليَّةً وسهّل في حفظها، فضلًا على ذلك شارك في صنع الدلالة الكبرى الّتي سعت السيدة الزهراء ﷺ بكلِّ فصاحتها إلى ترويجها عبر العصور.

٢-السجع:

فاضت الخطبة باستعمال جملٍ مملوءة بالأسجاع، وهو من المحسنات البديعيَّة ويعني لغةً "استوى واستقام وأشبه بعضه بعضًا، والسجع كلام مقفّى وسجّع تسجيعًا تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن"[٢٩]، وقد شغل السجع مكانةً عليَّةً في جمل هذه الخطبة ومفرداتها، فهو يشكّل مع دلالته موضوعًا خصبًا للدراسة، لا سيَّما ممَّا أظهرته هذه الخطبة من فصاحة كبيرة للسيِّدة الزهراء، ولكن ممَّا يمكن الاكتفاء به، السجع في قولها ﷺ "قبسة

٢٤ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢١.
٢٥ لقمان، سعيد. الاتساق الدلاليّ في قصص القرآن الكريم، ط١ (الاردن: دار الكتاب الثقافي، د.ت)٣٩.
٢٦ الناصر، عبد الحسن. إشراقات غرّاء من خطاب السيدة الزهراء، ط١ (بيروت: دار القارئ، ٢٠١٨)، ١٢٨.
٢٧ ملكاوي، دينا. النثر الخيالي في الأندلس، ط١ (الأردن: دار المناهج، ٢٠١٨)، ١٨٩.
٢٨ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٤٢.
٢٩ ابن منظور، لسان العرب مج١، ١٧٦١.

العجلان وموطئ الأقدام"[٣٠]، فقد وقع السجع بين النون والميم في لفظتي العجلان والإقدام، فضلًا عن ذلك ورد السجع بين هذين الحرفين في قولها "فأنّى جزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان"[٣١]، فالنون حرف متشابه المخرج مع الميم وقد "حدّد القدماء مخرج النون المتحرّكة من طرف اللِّسان فضلًا عن اشتراكها مع الميم في الغنَّة والاستطالة وفي كونهما معًا من حروف طرف اللِّسان والخيشوم ولذا تكرَّر عند الأقدمين ضمَّهما إلى نسبٍ واحد، وتتمتَّع النون بقدرٍ كبيرٍ من الوضوح السمعيّ إذ تشغل مع الميم في الترتيب التصاعديّ المرتبة السابعة في سلم الترتيب المكوّن من عشر درجات"[٣٢].

شغل السجع مكانةً جماليَّةً في هذه الخطبة ساعد في توارثها في المحفوظ الشعبيّ نظرًا إلى أهمِّيَّتها على الصعيدين الاجتماعيّ والسياسيّ، وقد أحسنت السيدة الزهراء ﷺ استثمار هذا المكوّن البلاغيّ للفت انتباه المتلقِّين، وهذا ما ظهر من الإيقاع الداخليّ، وتتكشّف سطور الخطبة عن مكوّن إيقاعيّ آخر هو الإيقاع الفكريّ فكيف ظهر في هذه الخطبة؟

ثانيًا: الإيقاع الفكريّ

لا تقتصر موسيقا النَّصِّ على الإيقاع الداخليّ وحده فحسب بل ينهض في أثناء النصّ موسيقا ناشئة من تردّد أصداءٍ فكريَّةٍ تستدعي تفاصيل غير منطوقٍ بها تجعل المتلقِّي مشاركًا في عمليَّة اكتشاف الإيقاع الفكريّ للخطاب الموجَّه إليه "فدراسة هذا الإيقاع يكشف عن عمق العلاقات بين الناس والأشياء، فهو يرصد الحدث كيف حدث؟ ولماذا حدث؟ وفهم هذا الإيقاع يعمِّق الرؤية في فنِّيَّة العمل الأدبيّ وأبعاده الفكريَّة ويُلقي ضوءًا على الوضع الإنسانيّ كيف يقيم علاقاته؟ وكيف يحطّمها؟"[٣٣]، ومن هذه الأساليب المستعملة، الثنائيَّات الضِّدِّيَّة.

٣٠ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٦.
٣١ السيدة الزهراء، ٢٨.
٣٢ الغامدي، محمّد سعيد. العربية لغة النون، مجلّة الدراسات اللغويّة، العدد٢. مجلد٧ (السعودية، ٢٠٠٥)، ٤١.
٣٣ الزغبي، أحمد . في الإيقاع الروائيّ، ط١ (عمّان: دار المناهل، ١٩٩٥)، ٩.

١-الثنائيَّات الضِّدِّيَّة:

انطوت الخطبة على ثنائيَّةٍ ضدِّيَّةٍ أساسيَّة، وهي ثنائيَّة الشرك والإيمان وهي البنية الكبرى وقد دارت في رَحاها البنيات الصغرى، وبموازاة ذلك تشظّى منها الطباق والمقابلة، فحملت دلالاتٍ كثيرةً لأنَّ العلاقات الموجودة بين العناصر المتقابلة متآزرة تقوم على التَّضادّ المتجاور والمتساند لتأليف المعنى الّذي تروم السيدة الزهراء ﷺ إيصاله إلى المتلّقي.

أعلنت السيدة الزهراء ﷺ في مُستهلّ خطبتها عن إيمانها بالتوحيد المطلق الصافي، وذلك بقولها: "وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له كلمةٌ جعل الإخلاص تأويلها"[٣٤]، ثُمَّ أضافت رؤيتها إلى الله النابعة من العقيدة القرآنيَّة "الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ امتثلها"[٣٥]، فالتوحيد ليس أمرًا ترفًا في عمليَّة تكوين المجتمع بل إنَّ "أثر عقيدة التوحيد في إتقان العمل والإبداع فيه، بما يحقّق التنمية الاجتماعيَّة المنشودة ويتجلَّى هذا بوضوح في أعمال المسلمين الّذين ينطلقون من أوامر الدين وتوجهاته وإرشاداته؛ لأنَّها تنظّم حياة المسلم تنظيمًا لافتًا للنظر فسواء أكان الأمر متعلِّقًا بالقضايا الكبرى الّتي تربط المسلم بغيره من أفراد المجتمع أم كان مرتبطًا بأخصّ ما يخصّه من شؤونه الذاتيّة"[٣٦]، ولأجل ذلك أعادت عبر الإشارة إلى ثنائية الإيمان والشرك تذكير المخاطبين بفضل الإسلام عليهم "فجعل الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك"[٣٧]، وانتشالهم من التفرقة والشرذمة ونقلهم إلى دورٍ فاعلٍ في الحياة، ففي التوحيد اتّحاد وقوَّة لإنَّ الإنسان يستشعر قوَّته انطلاقًا من هذه العبوديَّة للإله القادر وهذا ما تجلَّى في حديث النبيّ يوسف ﷺ مع صاحبي السجن ﴿يَاْ صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهّارُ﴾ (يوسف ٣٩) فالنبيّ يوسف فطن إلى أنَّ الطغاة يستغلُّون العوام بالأوهام الدينيَّة "فكأنَّ يوسف يريد أن يفهم السجينين أنَّ مشاكلكم من تفرقتكم وشرككم ونفاقكم الّذي مصدره عبادة الأوثان والأرباب المتفرّقين ممَّا سبّب أن

٣٤ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٦.
٣٥ السيدة الزهراء، ٧.
٣٦ رياح، عبد السلام .عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والإبداع فيه، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٩)، ١٨_ ٢٣.
٣٧ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٣.

يتغلَّب عليكم الطغاة والجبابرة فلمَ لا تجتمعون تحت راية التوحيد وتعتصمون بحبل الواحد القهّار لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة أي إنَّ التوحيد في جميع أبعاده في العبادة وفي الحكومة وفي المجتمع وفي المسائل الثقافيَّة وفي كلِّ شيء هو الدين الإلهيّ المستقيم والثابت ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولذلك خضعوا إلى حكومة غير الله فذاقوا الشقاء والجنون"[٣٨]، فالتوحيد يتبعه القهر، قهر الظالمين والضلال.

انبثق من الثنائية الأولى مقابلة متمثِّلة بالنظام مقابل الفرقة بقولها: "وطاعتنا نظامًا للملَّة وإمامتنا أمانًا من الفرقة"[٣٩]، فجدليَّة الطاعة والأمر واحدةٌ من العلاقات السلطويَّة في المجتمعات البشريَّة عمومًا، بل تتمدَّد لتصبح ظاهرةً أنثروبولوجيَّة والسيِّدة الزهراء ﷺ حصرت دائرة الطاعة في آل بيت الرسول وحدهم في إشارةٍ إلى الشرخ الحاصل في المجتمع الإسلاميّ آنذاك على الشورى "فقد رأت الشيعة أواخر القرن الأوَّل الهجريّ أنَّ الإمامة من مقتضيات الدين أو ضروراته بمعنى أنَّه لا قيام للدين من دونها أي إنَّ الدين يقتضي السلطة القائدة لإنَّ الإمام عندهم قائمٌ على الشرع ولا تقوم الشريعة في العالم من دونه، بينما ظلَّ الإمام عند أهل السنَّة في أحسن الحالات حارسًا للشرع وليس من مقتضياته"[٤٠]. ومن هذا القبيل تطرح السيِّدة الزهراء ﷺ طباقًا ثالثًا بين الذلّ والعزّ "والجهاد عزًّا للإسلام وذلًا لأهل الكفر والنفاق"[٤١]، إذ يمثّل الجهاد ركنًا أساسيًّا في المفهوم الإسلاميّ سواء كان الجهاد ضدّ الأعداء تحصينًا لثغور المسلمين أو بالجهاد الأكبر المتمثِّل في جهاد النفس، فالسيِّدة الزهراء ﷺ ترسم معالم المجتمع المحصَّن ابتداءً بالتوحيد أصل الهُويَّة الإسلاميَّة ثُمَّ طاعة ولي الأمر وأثرهما في شخصيَّة المجاهد الّذي يعدّ مصداقًا للآية المباركة ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِيْ الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْروفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (الحج ٤١) فهذه الآية تشير إلى ما بعد الجهاد وما يصنعه المسلم ذو الشخصيَّة المُحمَّديَّة الأصيلة فهم "فئة لا تلهو ولا تلعب كالجبابرة بعد انتصارها ولا يأخذها الكبر والغرور إنَّما ترى النصر سُلَّمًا

٣٨ شيرازي، ناصر مكارم. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١ (بيروت – لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠١٣)، مج٦/ ٢٥٦.
٣٩ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٣.
٤٠ رضوان، "رؤية الخلافة وبنية الدولة في الإسلام،" مجلّة الاجتهاد، العدد١٣. ١٦: (١٩٩٩).
٤١ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٣.

لارتقاء الفرد والجماعة إنَّها لن تتحوّل إلى طاغوتٍ جديدٍ بعد وصولها إلى السلطة لارتباطها القويّ بالله تعالى"[٤٢]، ولأجل ذلك تدرّجت ﷺ من الأهمِّ إلى المهمّ في عوامل صناعة الشخصيَّة الإسلاميَّة اللَّازمة لبناء مجتمعٍ راقٍ يسير تحت هدي الإسلام، وهذا ما انسحب على استعمال الثنائيَّات الضِّدِّيَّة "لأنَّها تحمل في جوهرها عنصر التَّضادّ الّذي يمكّنه من خلق التوتّر والفجوة وهذا ما يجعل النَّصَّ إبداعيًّا ونصًّا يحدث هزَّةً ويخلق عنفًا فكريًّا ورؤيويًّا، ولعلَّ هذا العنصر الأساسيّ هو صاحب الدور الفعّال في بقاء وخلود الكثير من النصوص الإبداعيَّة"[٤٣]، تفضي هذه الثنائيَّة الضِّدِّيَّة الكبرى مع تشظّياتها إلى إيجاد تحفيز في نفس المتلقِّي، لا سيَّما من شخصيَّة تتمتَّع بحضورها الطاغي في نفوس المسلمين وممَّا استعملته في خطبتها تقنية الالتفات وهي واحدةٌ من الإيقاعات الفكريَّة في النصوص.

٢-الالتفات

تبدّى في هذه الخطبة الالتفات وهو من أضرب البلاغة العربيَّة فقد عدَّه البلاغيُّون من محاسن اللَّفظ وقد عرّفوه قديمًا وحديثًا بأنَّه "الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كلّ واحدٍ منها إلى الآخر ويسمّى هذا النقل التفاتًا عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوبٍ إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريةً لنشاطه وأملًا باستدرار إصغائه"[٤٤]، تعقيبًا على ذلك، يُلحظ أنَّها افتتحت خطبتها من دون الإشارة إلى مخاطبٍ بل بدت أشبه بالمناجاة فبدأت بحمد الله، فالشهادتين ثُمَّ كسرت هذا النسق الإيقاعيّ بتوجيه خطابها إلى المستمعين باستعمال ضمير المخاطب وذلك بقولها: "أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه"[٤٥]، وأنَّ استعمال هذا الضمير هو عماد العمليَّة التواصليَّة في أيِّ خطابٍ "فالمرسل يوجِّه رسالة إلى المرسل إليه ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنَّها تقتضي سياقًا قابلًا لأن يدركه المرسل إليه، وتقتضي الرسالة، أخيرًا، اتِّصالًا، أي قناة فيزيقيَّة وربطًا نفسيًّا بين المرسل والمرسل إليه واتِّصالًا يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه"[٤٦]،

٤٢ شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠/ ٣٦٠.
٤٣ حسّان، خالد. الثنائيّة الضديّة في شعر بشّار بن برد، ط١ (عمّان: دار الخليج، ٢٠٢٣).
٤٤ السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق. عبد الحميد هنداوي، ط١ (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ٢٩٦.
٤٥ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١١.
٤٦ ياكبسون، رومان. قضايا الشعريّة، ترجمة. محمّد مبارك، ط١ (المغرب: دار توبقال، ١٩٨٨)، ٢٧.

ومن الواضح أنَّها ذكّرت المخاطبين بوصفهم عبادًا لله ولذا هم مأمورون بالطاعة المفترضة عليهم فليس لهم الخيرة من أمرهم فاستعملت في خطابها النداء والمنادى هم المسلمون "أيُّها المسلمون أأغلب على إرثي؟"[٤٧]، وإنَّ الالتفات من التكلُّم إلى الخطاب المباشر شائع في كلام العرب "وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِيْ فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ والأصل وإليه أرجع فالتفت من التكلُّم ﴿وَمَا لِي﴾ إلى الخطاب في قوله ﴿ترجعون﴾ هذه الآية تتحدَّث عن حبيب بن إسرائيل النجَّار وكان ينحت الأصنام وكان ينصح قومه، ثُمَّ أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلّطف بهم ويداريهم لأنَّ ذلك أدخل في إمحاض النصح فهو لا يريد لهم إلَّا ما يريد لنفسه"[٤٨]، فجاء الالتفات في هذه الخطبة حاملًا الدلالة نفسها فهي تتلطَّف بهم وتريد لهم النصح، بتذكيرها بضرورة العودة إلى عبوديَّة الله المتمثّلة بإطاعة أوامره، ومودَّة الرسول في قرباه وهذا ما دلَّت عليه هذه العبارة "وأطيعوا الله، واعلموا أنِّي فاطمة وأبي مُحَمَّد"[٤٩]، فهي تُدرك أنَّ المخاطبين يعرفون هُوِيَّتها ولكن "هذه المودَّة في نفع المؤمنين وهي وسيلة حصول الهداية، واستمرار منهج ورسالة وقيادة ذلك النبيّ ولذلك يجب الارتباط بذوي قرباه والاعتماد على قيادتهم وهذا هو الأمر الّذي يدافع عنه أتباع أهل البيت في مسألة الإمامة فإنَّهم يعتقدون أنَّ امتداد القيادة بعد النبيّ سيستمر إلى الأبد، لا في شكل النبوَّة بل في شكل الإمامة"[٥٠]، ثُمَّ خصَّصت خطابها بعد هذا التعميم فتوجَّهت إلى أبي بكرٍ بقولها: "يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟"[٥١]، لأنَّ مشكلتها كانت معه في منعها إرث أبيها واغتصاب الخلافة من أمير المؤمنين، بعد توجيهها الخطاب إليه خصّصت أيضًا حديثها مع الأنصار "يا معاشر الفتية وأعضاد الملّة وأنصار الإسلام"[٥٢]، وممّن خصصتهم بحديثها بنو قيلة بقولها: "إيَّها بني قيلة أأهضم تراث أبيه وأنتم بمرأى منّي ومسمع ومبتدأ ومجمع؟"[٥٣] إنَّ الانتقال بين الإخبار والمخاطبة

٤٧ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٣.
٤٨ ابن الأثير، المثل السائر ج٢، تحقيق. محمّد عبد الحميد، د.ط. (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٠)، ١٧٧.
٤٩ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٦.
٥٠ شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مج١١/ ٢٩٧.
٥١ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٣.
٥٢ السيدة الزهراء، ٢٥.
٥٣ السيدة الزهراء، ٢٦.

ترك تلوينًا موسيقيًّا "فهو في منزلة التلوين بالضمائر الّذي يماثل التلوين التشكيليّ"[٥٤]، فضلًا على الدلالة الموسيقيَّة والإيقاعيَّة الّتي يؤدِّيها الالتفات في النصوص، فإنَّه يحمل دلالة الملامة "فالغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ، ففائدته التوكيد على التوبيخ وهو كثير في النصّ القرآنيّ"[٥٥]، فالسيدة الزهراء ﷺ تستمدّ من معالم النصّ القرآنّي مدماكًا تبني عليه خطابها، وهذا ما سينجلي في المبحث التالي.

٣- التناصّ

مدّ التناصّ أواصره في هذه الخطبة، فبدا واضحًا وجليًّا والتناصّ مصطلحٌ نقديٌّ عُرف بأسماء عديدة من قبيل التفاعل النَّصِّيِّ والتداخل النَّصِّيِّ والتعالقات النَّصِّيَّة، بل بدا قدَرًا لأيِّ كاتبٍ لأنَّ "النصّ ابن النصّ، فمفهوم جسديَّة النصّ لا يقوم على عزل النصّ عن سياقاته الأدبيَّة لأنَّ النصَّ الأدبيّ يدخل في شجرة نسبٍ عريقة وممتدّة تمامًا مثل الكائن البشريّ فهو لا يأتي من فراغٍ كما أنَّه لا يفضي إلى فراغٍ، فمن طبع النصّ الأدبيّ أن يكون مخصبًا ومنتجًا تمامًا مثل كلِّ كائنٍ حيٍّ"[٥٦]، فضلًا عن ذلك يدلّ على براعة الخطيب ومقدرته في استحضار النصّ الغائب إلى نصِّه، كما يحمل دلالةً موسيقيَّةً إذ "يرى بعض النقّاد أن الموسيقى ليست مقصورة على الصوتيَّة بل منها ما يتعدّى إلى موسيقى ناشئة عن تردّد أصداء فكريَّة قد تحملها عبارة ما مأخوذة من نصٍّ سابقٍ عن طريق التداخل النصّيّ فتثير في النفس ما تثيره الأصوات الموسيقيَّة المسموعة"[٥٧]، والملحوظ في هذه الخطبة أنَّها مليئة بالتناصّات من القرآن الكريم، ولكنّ توظيف التناصّ لم يأتِ في النصّ اعتباطًا بل هو مقصود وفيه غاياتٌ دلاليَّةٌ وإيحائيَّةٌ؛ لأنَّ الخطاب في جوهره رسالةٌ يوّظف فيها الخطيب مهاراته المعرفيَّة بغرض التأثير في المتلقّي ونجاح العمليَّة التواصليَّة، وبما أنَّ السيدة الزهراء ﷺ تحتجّ بالقرآن الكريم على المخاطبين ترتّب على ذلك طغيان التناصّ معه، فأوَّل آية ذكرتها هي "ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون"[٥٨]، وهي جزء من الآية الثانية بعد المئة من سورة آل عمران، وعلى الرغم من

٥٤ غنيم، كمال. عناصر الإبداع الفنيّ في شعر أحمد مطر، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨)، ٣١٢.
٥٥ درويش، شوكت. الالتفات نحويًّا، ط١ (عمّان: دار غيداء، ٢٠١١)، ١١٧.
٥٦ الغذامي، عبدالله . ثقافة الأسئلة، ط٢ (الكويت: دار سعاد الصبّاح، ١٩٩٣)، ١١١.
٥٧ حمادة، إيهاب. الفاعلية الصوفية والوجودية في الشعر اللبناني الحديث، ط١ (بيروت: دار الولاء، ٢٠١٧)، ١٩٧.
٥٨ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٤.

أنَّها اختارت جزءًا من الآية إلّا أنَّها بعد عدّة مقاطع من خطبتها ذكرت جزءًا آخرَ من الآية التالية لهذه الآية "وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ"[٥٩]، ما يشي بدخول هذا المقطع في دائرة التناصّ الخفيّ "وهذه ضروب حقيقيَّة قلّما ترد المدارك في الإشارة إلى المعنى وإخفاء السرّ"[٦٠]، وعلى الرغم من أنَّ السيدة الزهراء ﷺ لم تذكر الآيتين الثانية والثالثة بعد المئة من سورة آل عمران بتمامها ولكنَّها قصدت محتواهما، تدلّ الآيتان على ضرورة التزام التقوى، ثُمَّ الاعتصام بحبل الله تعالى "وإنَّ كلَّ من يمشي على طريقٍ دقيقٍ يخاف أن تزلق رجله فإذا تمسّك بحبلٍ مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف ولا شكّ أنَّ طريق الحقِّ طريقٌ دقيق يخاف أن تزلق رجله فإذا تمسّك بحبلٍ مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف، وقد انزلقت رجل الكثير من الخلق عنه فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنَّه يأمن من ذلك الخوف"[٦١]، تعقيبًا على ذلك يُمكن القول إنّ تناصًّا خفيًّا آخر يلوح من هذا المقطع، ليعاضد هاتين الآيتين وهو التناصّ مع حديث الثقلين، فالنبيّ ﷺ قال لأصحابه: "فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب وإنِّي تاركٌ فيكم الثقلين أوَّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسَّكوا بكتاب الله وخذوا به، ثُمَّ قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي"[٦٢]، فهي تحذّر المسلمين من انتكاسةٍ كبرى لذلك أشارت إلى ضرورة التمسّك بما حدّده رسول الله ﷺ، بل إنَّها وبما تتحلَّى به من شخصيَّة قياديَّة قادرة على استشراف عاقبة هذه الأمَّة؛ لأنَّ القيادة الرؤيويَّة "هي القيادة الّتي لديها القدرة على زرع وتوصيل رؤية حقيقيَّة صادقة لتحقيق المستقبل المشرق، ولهذا فإنَّ القائد الرؤيويّ لديه صورة واضحة للمستقبل المأمول من خلال تحديد تلك الرؤية الحقيقيَّة ثُمَّ إيصالها إلى الأتباع ثُمَّ دفعهم إلى الالتزام بها"[٦٣]، وبناءً على رؤيتها هذه أخبرتهم بالنتيجة المؤسفة "ألا في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين"[٦٤]، معلِّلةً بمؤازرة التناصّ عن السبب "وكتاب الله بين أظهركم، قد خلفتموه وراء ظهوركم"[٦٥].

٥٩ السيدة الزهراء، ١٦.
٦٠ الحاتمي، محمّد. حلية المحاضرة ج٢، تحقيق. جعفر الكتاني، د.ط. (العراق: دار الرشيد، ١٩٧٩)، ٣٩.
٦١ الرازي، محمد فخر الدين. التفسير الكبير، ط١ (بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٨١)، ١٧٧.
٦٢ الذهبي، شمس الدين. المهذّب في اختصار السنن الكبرى للبيهقي ج٢، تحقيق. محمّد عثمان، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٠)، ١٣٠.
٦٣ الكوسوفي، خير الدين. القيادة الناجحة تأصيلها في ضوء الآيات القرآنيّة والدراسات المعاصرة، ط١ (عمّان: الآن للنشر، ٢٠٢٣)، ٢٢٧.
٦٤ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢١.
٦٥ السيدة الزهراء، ٢١.

يكشف حديثها مع أبي بكر عن دعوتها إلى تحكيم كتاب الله بينها وبينه وهذا ما يتلاقى مع الحديث الشريف "أتاني جبرائيل فقال يا محمّد: إنَّ الأمَّة مفتونة بعدك، قلت له: ما المخرج يا جبريل؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين وهو الصراط المستقيم"[٦٦]، علاوةً على ذلك أدَّى التناصّ دورًا فاعلًا في هذه الخطبة وفي تدعيم موقف السيدة الزهراء ﷺ من الرسالة المروم إرسالها وهو إذ يتشابه مع مبحثٍ من مباحث علم البديع يُعرف بالسرقات الأدبيَّة "فالتواصل في إطار التناصّ يقتضي تقاطع نصوصٍ مختلفةٍ داخل نصٍّ واحدٍ فإنَّ هذه التقاطعات قد أثارت انتباه القدامى فربطوها بمسألة السرقة الأدبيَّة"[٦٧]، وفضلًا على الدور البلاغيّ الكبير الّذي اضطلع به، فإنَّه غذَّى النسق الإيقاعيّ للخطبة "وهذا ما يبعثه التضمين والاقتباس، إذ يختلطان بالموسيقى، بما يرسلانه من هذه الأصداء المتردّدة القادمة من نصٍّ سابق"[٦٨]، وقد أحسنت السيدة الزهراء ﷺ بما تتحلّى به من فصاحة وبلاغة في استثمار هذا المكوّن الموسيقيّ وإثراء دلالات الهدف الّذي تريد.

المبحث الثاني: النسق التركيبيّ

أوَّلًا: ثنائيَّة الجمل الإسميَّة والفعليَّة:

تحتشد الجمل الفعليّة في هذه الخطبة وتغلب الجمل الإسميَّة، وإنَّ الإكثار من الجمل الفعليَّة راجع إلى رؤية السيدة الزهراء ﷺ إلى الأحداث المتسارعة وتجدّدها "فالفعل دالٌّ على التجدّد والتكرار وأنّ الاسم دالّ على الثبوت"[٦٩]، استهلَّت السيدة الزهراء ﷺ خطبتها بجملة اسميَّة "الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدّم من عموم نعمٍ ابتدأها وسبوغ آلاءٍ أسداها وتمام منٍن أولاها"[٧٠]، واللافت في هذا المقطع تفريقها بين الحمد والشكر "لأنَّ الشكر أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه وأخصّ من جهة متعلَّقاته، والحمد أعمُّ من جهة المتعلَّقات، وأخصّ من جهة الأسباب فالشكر اسم لمعرفة النعمة لأنَّها السبيل إلى معرفة المنعم"[٧١]،

٦٦ الهندي، علاء الدين. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال ج١، تحقيق. محمود الدمياطي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٦)، ١٠١.
٦٧ بنهشوم، الغالي. التناصّ الشعريّ بين الخفاء والتجلّي، ط١ (الاردن: دار الخليج، ٢٠٢٠)، ١٥.
٦٨ غنيم، عناصر الإبداع الفنيّ في شعر أحمد مطر، ٣١٣.
٦٩ عبدالله، عبدالحليم إعراب الجمل في الفكر النحويّ، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٢١)، ٧٢.
٧٠ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٧.
٧١ الجوزية، ابن قيم. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج٢، تحقيق. عبد الغني الفاسي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ١٣٨.

فابتدأت بالحمد على نعمه، ثُمَّ خصّصت بشكره على الإلهام وهو الوحي المختصّ بالنبيّ وهي ابنته، وهذا ما يناسبه الجملة الإسميَّة لثبوتها ودوامها، بعد هذه الجمل الإسميَّة، تتالت الجمل الفعليَّة الّتي تدور في حيّز شكر النعمة الإلهيَّة "جمّ عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتِّصالها واستحمد إلى الخلايق بإجزالها وثنّى بالندب إلى أمثالها"[٧٢]، وإنَّ استعمال الأفعال في هذه الجمل أتى في سياق التجدّد الدائم لنعم الله تعالى وقد أتى استعمال الفعل الماضي دالًّا على ثبوتها وتحقيقها مع تجدّدها.

يظهر من بين الجمل الفعليَّة استعمال فعل الأمر في قولها: "اعلموا أنِّي فاطمة وأبي محمّد"[٧٣]، لم يكن استعمال فعل الأمر ترفًا في هذا النصّ على الرغم من أنَّ المخاطبين يدركون تمامًا من هي، ولكنَّها جاءت بهذا الفعل لإلقاء الحجَّة، لا سيَّما بما يحمله فعل الأمر من دلالة المستقبل "وهكذا فإنَّ صيغة افعل هو المستقبل"[٧٤]، فإنَّها أرادت لخطبتها أن تكون عابرةً للعصور، وقد حمل فعل الأمر دلالة التهديد والوعيد في قولها: "فدونكها مخطومة مرحولة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخفّ"[٧٥]، فاسم فعل الأمر جاء لهذه الغاية، ولكنّ المتأمَّل في خطبة السيدة الزهراء ﷺ يلحظ غلبة الأفعال الماضية على المضارعة، وأمّا الدلالة فهي أفصحت عنها بقولها: "زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ "[٧٦] فغلبة الأفعال الماضية للإشارة إلى تحقّق سقوطهم في الفتنة.

أوحى الخطاب بالمقدرة اللُّغويَّة العظيمة الّتي أخذتها السيدة الزهراء بقوَّة، فبثّتها في خطابها، فجعلت اللُّغة طيّعةً بين يديها لتدارك الحدث الجلل وتبيان ما ستؤول إليه الأمور عقيب غصبها حقّها ولذلك جاءت بمقاطع استفهاميّة متتالية للغاية نفسها.

ثانيًا: الاستفهام

يقسّم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء ويضيفون إلى تعريفهم أنَّ الأوَّل هو ما يصحُّ أن يُطلق على قائله صادقٌ أو كاذب بينما الثاني لا يوصف بذلك "والقول الإنشاء لا يحتمل

٧٢ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٧.
٧٣ السيدة الزهراء، ١٥.
٧٤ رشيد، كمال. الزمن النحويّ في اللغة العربيّة، ط١ (الأردن: دار عالم الثقافة، ٢٠٠٨)، ٥١.
٧٥ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٤_ ٢٩.
٧٦ السيدة الزهراء، ٢١.

الصدق أو الكذب ليس معناه أنَّه غير صالح لأن يوصف بالصدق والكذب وإنَّما معناه أنَّ المقصود بأساليبه ليس هو الحكاية مع أنَّ وجود النسبتين الكلاميَّة والخارجيَّة الّذين يكون الصدق بمطابقتهما والكذب بعدم مطابقتهما قائم فيه"[٧٧]، والجملة الاستفهاميَّة هي نمطٌ من أنماط الجملة الإنشائيَّة الطلبيَّة، تعاقبت في هذه الخطبة ستَّة مقاطع استفهاميَّة، شغلت أداة الاستفهام الهمزة الحيّز الأكبر في هذه المقاطع، ممَّا حقَّق لهذه الجمل توازيًا في المستوى التركيبيّ، والهمزة تستعمل للتصوّر والتصديق "الهمزة أحد أمرين تصوُّر أو تصديق"[٧٨]، وهي أمُّ الباب[٧٩]* عند النحاة، عودًا على بِدء يمكن القول إنَّ الاستفهام قد يخرج من معناه الأصلّي وهو طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا إلى معانٍ أخرى ذكرها النحاة واهتمَّ بها البلاغيُّون أيَّما اهتمام "فهمزة الاستفهام تقريرٌ بفعلٍ قد كان وإنكارٌ له لما كان وتوبيخٌ لفاعله عليه"[٨٠].

يأتي استعمال الاستفهام مترابطًا مع تقنيَّة الالتفات المستعملة في هذه الخطبة، فكلاهما مختصَّان بالآخر المخاطب إذ "يبدو واضحًا ارتباط المعنى الّذي تحمله أداة الاستفهام والعلاقة الّتي تحكم المتكلّم بالمخاطب وفي المعنى الّذي تشير إليه وتشكّل أم المعادلة مع همزة الاستفهام بناءً واحدًا، لكنَّه يؤدّي معاني متباينة... فعند ذاك يكون له معنى يتعلّق بالمخاطب"[٨١]، وبالعودة إلى المقطع الاستفهاميّ الأوَّل في هذه الخطبة "كيف بكم؟ وأنَّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم... أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟"[٨٢]، الملحوظ أنَّها بدأت بكيف ثُمَّ عدلت عنها إلى أنَّى "فالغرض من العدول إلى أنَّى توسيع المعنى وزيادته... فأنَّى تحمل قوَّة في الاستفهام بخلاف أين وكيف وهي أوسع استعمالًا منهما... ففيها من التعجُّب ما ليس بكيف"[٨٣]، وفي الجملة الاستفهاميَّة الثانية من هذا المقطع إحالة إلى جزء من آياتٍ تكرّرت في القرآن الكريم في أربعة مواضع ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونْ﴾ (الانعام ٩٥)، (يونس ٣٤)، (فاطر ٣)، (غافر ٦٢) ودلالة الفعل

٧٧ أبو موسى، محمّد . دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط٢ (مصر: مكتبة وهبة، ١٩٨٧)، ١٩٠.
٧٨ الهاشمي، أحمد . جواهر البلاغة، د.ط. (مصر: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧)، ٨٨.
٧٩ الأنباري، أبو البركات. أسرار العربية، تحقيق. محمّد بهجت البيطار، د.ط. (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٧٥)، ٥٦.
٨٠ الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، تحقيق. محمود شاكر، د.ط. (مصر: مكتبة الخانجي، د.ت.)، ١١٣.
٨١ الخفاجي، بان. المخاطب في النحو العربي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٨)، ٢٥٥.
٨٢ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢١.
٨٣ السامرائيّ، فاضل. معاني النحو ج٤، ط١ (عمّان: دار الفكر، ٢٠٠٠)، ٢٥٥_٢٥٦.
* والعرب تقول أصل كلّ شيء أمّه ولذلك قال سيبويه: إنّ أمُّ الجزاء والألف أمُّ الاستفهام وإلّا أمّ الاستثناء والواو أمّ حروف العطف يريد أنّها أصول هذه الأبواب... وأمّ كلّ شيءٍ معظمه ويقال لكلّ شيء اجتمع إليه شيء فضمّه هو أمّ له.

المستعمل قلب الحقائق وليس الجهل بها "يؤفكون يُصرفون... والمراد صرفهم عن الهدى، فكيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى أو كيف أمكن لمضلِّليهم أن يصرفوهم مع وضوح الدلائل"[٨٤]، فاللافت دقّة التناصّ القرآنّي المبثوث في هذا الاستفهام لتقريع المخاطبين وذمِّهم فهم ليسوا في حالة جهل عن الحقيقة الواضحة بل قلبوا الحقَّ من بعد ما تبيّن لهم.

حقّق المقطع الاستفهاميّ الثاني توازيًا على المستوى التركيبيّ فقد توحّد بأداةٍ واحدةٍ هي الهمزة في جمله الثلاث، وجّهت هذه الجمل بشكلٍ مباشر إلى أبي بكر بوصفه العامل الرئيس في غصبها حقَّها "أَأُغلب على إرثي يا بن أبي قحافة؟ أَفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًّا، أَفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟"[٨٥]، اللافت أنَّها أتبعت همزة الاستفهام بفعلٍ مبنيٍّ للمجهول "فالفاعل محذوفٌ للملامة والتوبيخ وهذا الحذف وثيق الصلة بالتعريض في فنِّ البلاغة... الفاعل مُخرجٌ عن استئهال أن يُخاطب ويُسأل عمَّا فعله"[٨٦]، أمَّا المقطع الاستفهاميّ الرابع فلم يخرج من الدلالة الّتي أرادت السيدة الزهراء ﷺ إيصالها إلى المخاطبين وهي التقريع واللوم والدعوة إلى التحاكم في ضوء القرآن الكريم، ثُمَّ توجّهت بندائها إلى الأنصار بمقطعٍ استفهاميّ قائلةٍ: "يا معاشر النقيبة، وأعضاد الملّة، وأنصار الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي؟ والسّنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: "المرء يُحفظ في ولده"؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أُحاول، وقوَّة على ما أطلب وأزاول! أتقولون مات مُحَمَّد؟ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِيْنَ﴾"[٨٧]، وعلى الرغم من أنَّ هذا المقطع بقي دائرًا في فلك الدلالة الكبرى للمقاطع الاستفهاميَّة السابقة فإنَّه خبَّأ مطلبًا وهو "تهييج الأنصار لنصرتها وتوبيخهم على تركها... والتعجُّب من تعجيل الأنصار ومبادرتهم إلى إحداث البدع، وترك السنن، ورفض الأحكام والتخاذل عن نصرة عترة سيِّد الأنام... وأمركم الله تعالى ألَّا ترتدُّوا

٨٤ ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير ج١/ ٢٩، ط١ (تونس: الدار التونسية للكتاب، ١٩٨٤)، ٢٤٣.
٨٥ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٣.
٨٦ الشوا، أيمن. أسرار الفعل المبني للمجهول، ط١ (دمشق: مكتبة ابن عطية، ٢٠٠٨)، ١٦٨_ ١٦٩.
٨٧ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٥.

بعدها على أعقابكم"[٨٨]، وبعد مخاطبتها الأنصار خاطبت بني قيلة "أَأُهضَمُ تراث أبي وأنتم بمرأى منّي ومسمع ومبتدأ ومجمع؟"[٨٩]، فلم يخرج هذا المقطع الاستفهاميّ عن دلالة سابقيه فاستفهمت بالهمزة وأرفقتها بالفعل المبنيّ للمجهول الّذي حمل دلالة التوبيخ، أمَّا المقطع الاستفهاميّ السادس والأخير فقد ابتدأته بتسبيح الله وتنزيه أبيها رسول الله "سبحان الله! ما كان رسول الله عن كتاب الله صادقًا ولا لأحكامه مخالفًا... أفتجمعون إلى الغدر اغتلالًا عليه بالزور؟... ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾؟"[٩٠]، استهلَّت الجملة الاستفهاميَّة الأولى بالهمزة المقحم بينها وبين الفعل المضارع ويضمّ هذا الفعل تجمعون الظلم والطغيان والانتكاسة الكبرى، بناءً على ذلك يُمكن القول أنَّ السيدة الزهراء ﷺ ابتدأت بخطاب المسلمين عامّةً ثُمَّ انتهت نهايةً دائريةً بخطابهم أيضًا، لأنَّها لم تسعَ إلَّا إلى مصلحة الأمَّة الإسلاميَّة جمعاء وهذا ما أظهره استعمال المفعول لأجله وهو المبحث الآتي.

ثالثًا: المفعول لأجله والحال:

تظلَّلت سطور الخطبة باستعمالٍ وارفٍ وطاغٍ للمفعول لأجله وهو أحد المصادر المنصوبة على المفعوليَّة "وهو مصدرٌ قلبيٌّ يذكر علّةَ حدثٍ شاركه في الزمان والفاعل وعلامته أن يكون صالحًا لجواب لماذا أو ما أو لِمَ"[٩١]، يحمل المفعول لأجله كما يظهر من المصطلح سبب وقوع الفعل وقد ابتدأت السيدة الزهراء ﷺ باستعماله لبيان تنزيه فعل الله تعالى عن العبث بقولها: "إلَّا تثبيتًا لحكمته وتنبيهًا على طاعته وإظهارًا لقدرته"[٩٢]، وإنَّ توالي هذه المفاعيل تحمل بين طيَّاتها بُعدًا دلاليًّا يُظهر الوجود الغائيّ من الخلق كما يظهره قوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ (**المؤمنون:١١٥**)، فالخلق منزّهٌ عن العبث، بل غاية خلق البشر عبادة الله كظاهر الخطاب القرآنيّ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (**الذاريات ٥٦**)، وكما أشارت إليه هذه الخطبة "وتعبّدًا لبريّته وإعزازًا لدعوته ذيادةً لعباده عن نقمته وحياشةً

٨٨ الأنصاري، اللمعة البيضاء، ٦٦٠_ ٦٦٣.
٨٩ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٢٦.
٩٠ السيدة الزهراء، ٣٤.
٩١ التونجي، محمّد. المعجم المفصّل في علوم اللغة ج٢، تحقيق. إميل يعقوب، د.ط. (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ٦١٠.
٩٢ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ٧.

لهم إلى جنّته"[٩٣]، ارتباطًا بما سبق يبدو أنَّ السيدة الزهراء ﷺ تشير إلى معالم صناعة شخصيَّة الإنسان الصالح، وبوجود هذا الإنسان سينشأ المجتمع المثاليّ، ظهر هذا في شرحها لعلل الشرائع المفروضة على الناس تحت قيادة وإمرة رسول الله "ابتعثه الله إتمامًا لأمره، وعزيمةً على إمضاء حكمه وإنفاذًا لمقادير حتمه"[٩٤]، ثُمَّ حدّدت في مقطع ورد فيه المفعول لأجله ما يفوق العشرين مرَّة ذكرت فيه أركان العبادات والمعاملات المختّصة بالهُويَّة الإسلاميَّة وعلاقتها مع الآخر "فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر والزكاة تزكيةً للنفس ونماءً في الرزق" إلى قولها: "وحرّم الله الشرك إخلاصًا له بالربوبيَّة"[٩٥]، واللافت ابتداء هذا المقطع بالتوحيد وانتهاؤه به، انطلاقًا ممَّا تقدَّم يمكن القول إنَّ الوظيفة الدلاليَّة من الابتداء بذكر التوحيد والانتهاء به تبيان هذه المرحلة من الخلق الّتي أشار الله تعالى إليها بقوله ﴿ إِنِّيْ جَاْعِلٌ فِيْ الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة ٣٠) فالغاية من خلق البشرية إعمار الأرض عبر الخلافة المجعولة من الله تعالى فهذا "إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر من دون ذلك، إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة؛ لأنَّ دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأنَّ امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطبتين ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاته على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمَّة وتنفيذ الشريعة"[٩٦]، إنَّ إقامة حدود الله والإذعان لطاعته مرتبطٌ بعمران البشريَّة فضلًا عن النعيم الموعود في الآخرة وهو مصداق لقوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيْقَةِ لَأَسْقَيْنَاْهُمْ مَّاْءً غَدَقًا ﴾ (الجنّ ١٦) تحمل هذه الآية المباركة بين طيَّاتها فاعليَّة الاستقامة في عمران المجتمعات "وهذه اللَّفتة تحتوي جملة من الحقائق تدخل في تكوين حقيقة المؤمن وتصوّره عن مجريات الأمور وارتباطاتها هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات وبين إغداق الرخاء، وهو حقيقةٌ قائمة وإذا كانت هناك أممٌ لا تستقيم على حقيقة الله ثُمَّ تنال الوفر والغنى فإنَّها تُعذّب بآفات أخرى في إنسانيّتها أو أمنها أو قيمة الإنسان"[٩٧].

٩٣ السيدة الزهراء، ٧.
٩٤ السيدة الزهراء، ٨.
٩٥ السيدة الزهراء، ١٣_ ١٤.
٩٦ الطاهر، التحرير والتنوير ج١/ ٢٩، ٣٩٩.
٩٧ سيد قطب، في ظلال القرآن مج٦، ط٣٤ (مصر: دار الشروق، ٢٠٠٤)، ٣٧٣٤.

يظهر من ضمن دائرة المنصوبات انتشار الحال في هذه الخطبة ولكن بدرجة أقلّ من المفعول لأجله والحال "هي هيئة الفاعل أو المفعول... وإنَّما سُمِّي حالًا لأنَّه لا يجوز أن يكون اسم الفاعل فيها إلَّا لما أنت فيه"[٩٨]، وعلى الرغم من تفاوت أشكال هذا الظهور الجمل الحاليَّة أو الواو الحاليَّة، واستعمال الحال للقرآن "قائدًا إلى الرضوان أتباعه"[٩٩]، أو لتبيان حال المسلمين قبل بعثة الرسول "فرقًا في أديانها عكفًا على نيرانها عابدة على أوثانها"[١٠٠]، فإنَّه وبموازاة ذلك يُلحظ ظاهرة تركيبيَّة تتمثّل في استعمال عدّة أحوال صاحبها النبيّ محمّد" ﷺ وسلّم"، وينسحب ذلك على أمير المؤمنين وإنّ تعدّد الأحوال ممَّا يجيزه النحاة إذ "يجوز تعدّد الحال لذي حال واحدة"[١٠١]، بل يدخل هذا التعدُّد في دلالة التوكيد لأنَّ "الحال شبيهة بالخبر والنعت فيجوز أن تتعدّد وصاحبها واحد"[١٠٢].

أبانت السيِّدة الزهراء عن عبقريتها الفريدة في هذا الاستعمال تعدّد الأحوال، فقد ذكرت رسول الله بقولها "فبلّغ الرسالة صادعًا بالنذارة مائلًا عن مدرجة المشركين ضاربًا ثبجهم آخذًا بأكظامهم داعيًا إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسّر الأصنام وينكث الهام"[١٠٣]، فرسول الله بحسب هذا الوصف تنطبق عليه صفات القائد الإلهيّ الّذي يريد استنقاذ أمَّته، وبغية أن تقرن بينه وبين أمير المؤمنين حقّقت توازيًا تركيبيًّا متمثِّلًا باستعمال تعدّد الحال وصاحبها أمير المؤمنين فقالت: "وقذف أخاه في لهواتها... بسيفه مكدودًا في ذات الله، مجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله سيِّدًا في أولياء الله مشمّرًا ناصحًا مجدًّا كادحًا"[١٠٤]، في هذا الصدد يلوح من بين طيّات هذا المقطع حديث المنزلة "أنت منّي بمنزلة هارون من موسى"[١٠٥]، يُعاضد هذه الدلالة التوظيف الذكيّ للجملة الأولى "وقذف أخاه" فاستعمال كلمة الأخ للإشارة إلى هذا الحديث، فضلًا على دلالة الفعل قذف وهو المستعمل في قوله تعالى:

٩٨ ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري ج٢، تحقيق. إميل يعقوب، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميَّة، ٢٠١١)، ٤.
٩٩ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٢.
١٠٠ السيدة الزهراء، ٨.
١٠١ الخرّاط،أحمد. المجتبى من مشكل القرآن الكريم ج١، ط١ (المدينة المنوّرة: مجمع الملك فهد، ١٤٢٦)، ٣١١.
١٠٢ الجوزية، ابن قيم. إرشاد السالك إلى حلّ ألفية ابن مالك ج١، تحقيق. مالك السهلي، ط١ (الرياض: أضواء السلف، ١٩٥٤)، ٥٠.
١٠٣ السيدة الزهراء، الخطبة الفدكية، ١٦.
١٠٤ السيدة الزهراء، ١٨.
١٠٥ العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤)، ١٢٢.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغَهُ﴾ (الأنبياء ١٨)، وأمير المؤمنين كما جاء في وصفه "عليّ مع الحقّ والقرآن، والحقّ والقرآن مع عليّ ولن يتفرقا حتّى يردا علي الحوض"[١٠٦].

ضجّت الخطبة بمعالم الاسترشاد بالنهج القرآنيّ وتبيان أسس سعادة الدارين، وبذلك تكون قد ألقت السيَّدة فاطمة الزهراء ﷺ، الحجَّة عليهم، ولتجعلها لهم تذكرة وتعيها أذنٌ واعية.

الخاتمة:

تضافرت مكوّنات عديدة على تشكيل الإطار العامّ للخطبة الفدكيَّة، كان أهمُّها العامل السياسيّ الأساسيّ المتمثِّل بغصب الخلافة والمتستر بغصب فدك من وريثتها الشرعيَّة، ولأجل ذلك كانت فدك هي واجهة العبور إلى الخلافة الّتي طالبت بها السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ، واستثمرت المكوّن اللُّغويّ الّذي رفد الخطبة بعوامل ساعدت على خلودها في أذهان مستمعيها، وقد خلصت الدراسة إلى عددٍ من النتائج يمكن إيجازها في ما يأتي:

١-بدا في هذه الخطبة براعة السيَّدة فاطمة في استثمار المكوّن اللُّغويّ وحُسن تصرفها في النسق الموسيقيّ من ناحية توظيف الفواصل توظيفًا دقيقًا واستعمال السجع والجناس، ممَّا سهّل حفظ هذه الخطبة وتناقلها، وهذا ما ساعد في حفظها من الاندثار والضياع، لا سيَّما أنَّها وثيقة سياسيَّة داعمة لأحقيَّة الإمام عليّ بالخلافة.

٢- شكّل الرافد القرآنيّ عصب الخطب الأساس، فهي مبنيَّةٌ على أوتاده وهذا ما تجلَّى في استعمال التناصّ القرآنيّ بصورةٍ طاغيةٍ، ودعوتها إلى جعله حكَمًا، بوصفها القطب الثاني من الحبل الّذي جعله النبيّ ﷺ مُعتَصَمًا لأمّته، فهي من آل بيت الرسول وهي بذلك تدعو المسلمين إلى العودة إلى الأسس الّتي خطّها لهم النبيّ قُبيل وفاته.

٣-كشفت الخطبة الستار عن الجدليَّة الطاغية فيها وهي جدليَّة العلاقة بين الأنا والآخر سواء باستعمال تقنية الالتفات الّتي ركّزت من خلالها على ضمير المتكلِّم ومن خلال أسلوب الاستفهام والّذي توجّهت فيه إلى الآخر، وبذلك أسفرت السيَّدة الزهراء عن شخصيَّتها القياديَّة، القادرة على إرساء دعائم المجتمع الإسلاميّ في عصرها وفي ما يليه من عصور، أيضًا بما حثّت فيه على تطبيق حديث الثقلين والمنزلة، وهي الحريصة على

١٠٦ الزمخشري، ربيع الأبرار ج١، تحقيق. ربيع مهنا، ط١ (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٢)، ٨٢٨.

إنقاذ المسلمين من شرور أنفسهم ومن المصير الّذي تستشرفه لهم وهي بذلك تتلاقى مع صورة القائد الإلهيّ الّذي حدّد أُطرها القرآن الكريم ومن مصاديقها قوله تعالى ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (الكهف ٧١) فإنَّ النبيّ موسى عليه السلام لم يتحدَّث عن غرقه بل عن غرق أهل السفينة لأنَّه كان نبيًّا إلهيًّا كبيرًا يرى من واجبه إنقاذ أهل السفينة، وكذلك السيِّدة الزهراء عليها السلام فإنَّها حاولت إنقاذ المركب قبل أن يهوي بأهله، بما تعلمه من عواقب غصب الخلافة من أهلها، وهذا الأمر يفتح الباب على طرحٍ جديدٍ لباحثين آخرين في هذه الخطبة وهو صورة القائد في الخطبة الفدكيَّة.

والحمد لله ربِّ العالمين

المصادر:

القرآن الكريم

أبو موسى، محمّد. دلالات التراكيب دراسة بلاغية. ط٢. مصر: مكتبة وهبة، ١٩٨٧.

أيمن، الشوا. أسرار الفعل المبني للمجهول. ط١. دمشق: مكتبة ابن عطية، ٢٠٠٨.

ابن الأثير. المثل السائر ج٢. تحقيق محمّد عبد الحميد. د.ط. بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٠.

ابن منظور. لسان العرب مج١. تحقيق يوسف البقاعي. ط١. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٥.

ابن يعيش. شرح المفصل للزمخشري ج٢. تحقيق إميل يعقوب. ط١. بيروت: دار الكتب العلميَّة، ٢٠١١.

الخرّاط، أحمد. المجتبى من مشكل القرآن الكريم ج١. ط١. المدينة المنوّرة: مجمع الملك فهد، ١٤٢٦.

الأنباري، أبو البركات. أسرار العربية. تحقيق محمّد بهجت البيطار. د.ط. دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٧٥.

الأنصاري، التبريزي. اللمعة البيضاء. تحقيق هاشم الميلاني. ط١. قم: دفتر نشر الهادي، ١٤١٨.

البستاني، بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. د.ط. بيروت: دار الجيل، د.ت.

التونجي، محمّد. المعجم المفصّل في علوم اللغة ج٢. تحقيق إميل يعقوب. د.ط. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.

الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. تحقيق محمود شاكر. د.ط. القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.

الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق محمود شاكر. د.ط. مصر: مكتبة الخانجي، د.ت.

الجوزية، ابن قيم. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج٢. تحقيق عبد الغني الفاسي. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

الجوزية، ابن قيم. إرشاد السالك إلى حلّ ألفية ابن مالك ج١. تحقيق مالك السهلي. ط١. الرياض: أضواء السلف، ١٩٥٤.

الحاتمي، محمّد. حلية المحاضرة ج٢. تحقيق جعفر الكتاني. د.ط. العراق: دار الرشيد، ١٩٧٩.

الحيّاوي، عوّاد. شعر أبو ذؤيب الهذلي دراسة أسلوبية. ط١. دمشق: دار رسلان، ٢٠١٥.

الخفاجي، بان. المخاطب في النحو العربي. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٨.

الدنيوري، ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ج١. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٦.

الرازي، محمد فخر الدين. التفسير الكبير. ط١. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٨١.

الذهبي، شمس الدين. المهذّب في اختصار السنن الكبرى للبيهقي ج٢. تحقيق محمّد عثمان. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٠.

الرازي، فخر الدين. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق بكري شيخ أمين. ط١. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.

الزغبي، أحمد. في الإيقاع الروائيّ. ط١. عمّان: دار المناهل، ١٩٩٥.

الزمخشري. الكشّاف ج٣. تحقيق محمّد عبد السلام شاهين. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٥.

الزمخشري. ربيع الأبرار ج١. تحقيق ربيع مهنا. ط١. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٢.

السامرائيّ، فاضل. معاني النحو ج٤. ط١. عمّان: دار الفكر، ٢٠٠٠.

السكاكي. مفتاح العلوم. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط١. بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠.

السيدة الزهراء. الخطبة الفدكية. تحقيق عبد الرسول زين الدين. ط١. مؤسسة قصبة الياقوت، ١٤٤١.

الشكري، محمّد. علم اللغة النصيّ. ط١. عمّان: مركز الكتاب الأكاديميّ، ٢٠٢٠.
الشنقيطي، محمّد. زاد المسلم فيما اتفقت عليه البخاري ومسلم ج٤. تحقيق محمّد السيد عثمان. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢.
الشهرستاني، أحمد. الملل والنحل ج١. تحقيق محمّد عبد الوكيل. د.ط. القاهرة: مؤسسة الحلبي، ١٩٦٨.
الصدر، محمّد باقر. فدك في التاريخ. ط١. العراق: دار الصدر، ١٤٢٩.
الطاهر، ابن عاشور. التحرير والتنوير ج١/ ٢٩. ط١. تونس: الدار التونسية للكتاب، ١٩٨٤.
العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧. ط١. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤.
الغامدي، محمّد سعيد. العربية لغة النون. مجلّة الدراسات اللغويّة. العدد٢. مجلد٧. السعودية، ٢٠٠٥.
الغذامي، عبدالله. ثقافة الأسئلة. ط٢. الكويت: دار سعاد الصبّاح، ١٩٩٣.
القيسي، عبد المحسن. العربية لغة وثقافة. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٩.
الكوسوفي، خير الدين. القيادة الناجحة تأصيلها في ضوء الآيات القرآنيّة والدراسات المعاصرة. ط١. عمّان: الآن للنشر، ٢٠٢٣.
الناصر، عبد الحسن. إشراقات غرّاء من خطاب السيدة الزهراء. ط١. بيروت: دار القارئ، ٢٠١٨.
الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة. د.ط. مصر: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧.
الهندي، علاء الدين. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال ج١. تحقيق محمود الدمياطي. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٦.
بنهشوم، الغالي. التناصّ الشعريّ بين الخفاء والتجلّي. ط١. الاردن: دار الخليج، ٢٠٢٠.
بنيس، محمد. ظاهرة الشعر المغربيّ المعاصر. ط٢. المغرب: دار التنوير، ١٩٨٥.
حسّان، خالد. الثنائيّة الضديّة في شعر بشّار بن برد. ط١. عمّان: دار الخليج، ٢٠٢٣.
حمادة، إيهاب. الفاعلية الصوفية والوجودية في الشعر اللبناني الحديث. ط١. بيروت: دار الولاء، ٢٠١٧.
حمد، عبد الله. قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي. ط١. عمّان: دار الأكاديميون، ٢٠١٨.
حمد، عبد الله. موسوعة علوم اللغة العربية. ط١. بيروت: دار القلم، ٢٠٢٣.
درويش، شوكت. الالتفات نحويًا. ط١. عمّان: دار غيداء، ٢٠١١.
رشيد، كمال. الزمن النحويّ في اللغة العربيّة. ط١. الأردن: دار عالم الثقافة، ٢٠٠٨.
رضوان. "رؤية الخلافة وبنية الدولة في الإسلام." مجلّة الاجتهاد، العدد١٣. (١٩٩٩).
رياح، عبد السلام. عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والإبداع فيه. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٩.
سيبويه. الكتاب ج٤. تحقيق عبد السلام هارون. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢.
شيرازي، ناصر مكارم. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. ط١. بيروت - لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠١٣.
عبدالله، عبدالحليم. إعراب الجمل في الفكر النحويّ. ط١. بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٢١.
غنيم، كمال. عناصر الإبداع الفنيّ في شعر أحمد مطر. ط١. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨.
فتحي، إبراهيم. معجم المصطلحات الأدبيّة. ط١. تونس: المؤسسة العربية للناشرين، ١٩٨٦.

سيد قطب. في ظلال القرآن مج٦. ط٣٤. مصر: دار الشروق، ٢٠٠٤.

لقمان، سعيد. الاتساق الدلاليّ في قصص القرآن الكريم. ط١. الأردن: دار الكتاب الثقافي، د.ت.

مبارك، محمّد. اللغة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي. ط١. العراق: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٣.

ملكاوي، دينا. النثر الخيالي في الأندلس. ط١. الأردن: دار المناهج، ٢٠١٨.

منجود، مصطفى. الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام. ط١. القاهرة: المعهد العالي للفكر الإسلاميّ، ١٩٩٦.

ياكبسون، رومان. قضايا الشعريّة. ترجمة محمّد مبارك. ط١. المغرب: دار توبقال، ١٩٨٨.